حفني بك ناصف

تاريخ حياته

هو محمد الحفني ابن الشيخ اسماعيل ابن الشيخ خليل بن ناصف ، كان أبوهُ من أهل العلم وتوفي قبل ولادة ابنه بشهرين أو ثلاثة . ولد المترجم ببركة الحج[1] في ٥ محرم سنة ١٢٧٢ هـ الموافق ١٦ سبتمبر ١٨٥٥ م ، وما ترعرع حتى دفع الى كتاب البلدة فتعلم الخط وحفظ القرآن جميعه

ولما كان فقيه المكتب يفرط في ضرب تلاميذه ، وكان هو منذ نشأته يأبى الضيم ويترع إلى الحرية والعلم — وقد بقي كذلك حتى وفاته — فقد هرب إلى الازهر فمكث فيه عشر سنين متتابعة ، جوّد القرآن في الاولى منها وحفظ المتون المعتاد حفظها ، وتعلم في التسع الباقية فقه الشافعي والصرف والنحو وعلوم البلاغة والعروض والقافية والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث ، وحصل على إجازة برواية الحديث من الشيخ الأشموني . على أنهُ لم يقنع بدراسة هذه العلوم المدرسية ، فأخذ يتعلم خارج الازهر علم الميقات ومبادىء الفلسفة والانشاء والشعر والأدب وغير ذلك ، وسافر في غضون تلك المدة إلى الحجاز والشام للحج وزيارة المشاهد المقدسة

وذاعت شهرته في الازهر بالنحو والشعر ، وأصبح — بطريقة غير رسمية — يعلّم بشرح ابن عقيل على الألفية ، وكان نوابغ الطلبة يسألونهُ في النحو عما شاءوا فلم يعجز عن الجواب مرة واحدة ؛ اما في الشعر فقد كان لقصائده القدح المعلى في كل المحفلات الأدبية التي كانت تقام في بعض أروقة الازهر فيتبارى فيها شعراؤه من كل حدب ، وكان الازهريون يستكثرون عليهِ تلك القصائد ويظنون أنهُ قد يكون سرقها من الدواوين القديمة ، فاقترح عليهم أشعرهم في ذلك الوقت — فضيلة الشيخ عبد الرحمن قرّاعة — أن يساجله في شعر حدد موضوعه واختار بحره وقافيته فساجله على مشهد من الطلبة حتى صنعا اكثر من مائة بيت في أقل من ساعة ، ومن ذلك الوقت آمن الجميع بشاعريته وأخذ طلاب الشعر من الازهريين يلتفون حوله ويعرضون عليهِ قصائدهم فيزيد فيها أو ينقص

وكان يود أن يقضي حياته في الازهر بين تعلم وتعليم ، ولكن مدرسة دار العلوم كانت قد انشئت في ذلك الوقت فضل أن ينتظم فيها حتى لا تدرته علومها الحديثة ، وقد كان مستوى التعليم في تلك المدرسة أرقى مما هو الآن ، فامتحن مع مائة وخمسين طالباً من أنبه الازهريين

---

(١) سميت بركة الحج لانها كانت محط رحال المحمل قبيل سفره الى الحجاز كل عام ، وربما وقع الاختيار عليها لانها كانت على حدود الجزء المعمور من الدلتا ، وقد أدى عندها كثير من أهلها فريضة الحج ، وأهم مزروعاتها البلح (البركاوي)

قبل سن اربعة عشر كان هو أولهم ، ولم يزل حافظاً هذه الأولية حتى تخرج من المدرسة بعد سنوات أربع تعلم فيها فقه أبي حنيفة والحساب والهندسة والتاريخ والجغرافية والطبيعة والكيمياء ووظائف الاعضاء والصحة ومبادىء اللغة الفرنسية ؛ وذلك زيادة على التوسع في العلوم التي كان يدرسها من قبل

وفي تلك الاثناء كانت الثورة العرابية قد نشبت فقام بنصيبه فيها بالخطابة والكتابة السياسية وانتظم في سلك المتطوعين وبقي شهراً في قشلاق عابدين تدرّب فيه على الرماية وبعض فنون الجندية ؛ وكان يجيد السباحة والتخطي إلى حد غير مألوف بين الازهريين

وأول منصب تولاهُ بعد خروجه من المدرسة تعليم الخرس والعميان ، فتيسر لهُ في ثلاث سنين أن جعل الخرس يكتبون كل ما يريدون من المعاني ويفهمون ما يكتبهُ الناس لهم ؛ فسدت الكتابة عندهم مكان الكلام والسمع وتيسر لهُ تعليم الكبار من العميان الألفية كلها ورسالة الفضالي في التوحيد ومنظومة الشيخ حمد قسم في علم الميقات ؛ وقد نبغ منهم الشيخ مصطفى الفلكي البقاني ؛ وكان المترجم كلما حاول الانتقال من هذه المدرسة وقف في طريقه المفتش أسمي بك خوفاً على المدرسة أن تقف حركتها

ثم انتقل كاتباً خصوصياً (سكرتيراً) لشفيق بك منصور وكان هذا ميالاً للتأليف والتصنيف ولكنهُ لم يكن يعرف من علوم اللغة العربية ما يمكنهُ من ذلك ؛ فساعده المترجم من حيث اللغة والمادة ، كما ساعد غيره في وضع عدة كتب وترجمة اخرى.

وانتخب مع الشيخ حمزة فتح الله ومحمود بك رشاد للوفود الى مؤتمر المستشرقين في مدينة فينا تحت رآسة ارتين باشا ، وقدم كل من الثلاثة بحثاً علمياً ، فلم يقبل في محاضر جلسات المؤتمر ولم يطبع في مجموعته سوى رسالته هو (مميزات لغات العرب)

ولما استعفى شفيق بك من عمل النيابة انتقل المترجم إلى مدرسة الحقوق معلماً للانشاء القضائي والانشاء العام والبلاغة والمنطق وآداب المناظرة ؛ وقد مكث في تلك المدرسة خمس سنوات نبغ على يديه فيها أشهر المنشئين والمترافعين والمترجمين والشعراء [(١)]

وقد كلفتهُ وزارة المعارف في تلك المدة تأليف كتب سهلة يتعلم التلاميذ فيها قواعد النحو والصرف والبلاغة ، تغنيهم عن تلك المطولات الخالية من التبويب والتي لا تلائم اذهان الطلبة بحال ، فألف كتباً خمسة جرى عليها العمل من ذلك الوقت الى الآن ؛ وتعلم بها الوف الناشئين في مصر وغيرها. وكانت مصلحة المساحة ترجع اليه لتصحيح اسماء البلدان في اطالسها.

ثم نقل إلى القضاء الاهلي ومكث فيه عشرين سنة كان فيها ضماناً للعدل والانصاف ومثالاً للصبر

(١) نذكر منهم مصطفى كامل وقد أتم دراسته بتولوز ، وطه حسين وعبد الهادي الجندي وأحمد شوقي وأحمد لطفي السيد وأحمد زكي وعبد الخالق ثروت واسماعيل صدقي وتوفيق نسيم وطلعت حرب وأحمد زكي أبو السعود

حفني ناصف رحمه الله

مقتطف دسمبر ١٩٣٢ — امام صفحة ٥٩٩

ونبله وعنوانا للنزاهة والشجاعة ولا يزال أحرار البلاد الذين ترى التضامن فيهم يتحدثون بأصالته ودقة بحثه
وكان في خلال تلك المدة قد فكر مرشدو البلاد لتخليصها من التردي في الهوة التي تدفعها
اليها الاستعمارية البريطانية بقصرها عنايتها على تخريج الموظفين دون انشاء ثقافة حقيقية ؛
وقد رأى هو وزملاؤه ان يبدأوا سعيهم بانشاء الجامعة المصرية واخذوا في الدعوة الى هذا
المشروع . وادرك الانجليز خطورة الفكرة فعملوا من ناحيتهم كل ما يستطيعون لمنع انشاء
الجامعة : فأوحوا إلى صنائعهم ان يطنبوا ويزمروا بالدعوة الى نشر التعليم الاولي كي يضيع
بين ضجيجهم صوت الداعين الى انشاء الجامعة ؛ وعين سعد باشا زغلول اذ ذاك وزيراً
فاستقال من عضوية مجلس ادارة الجامعة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٦ ونقل المترجم من مصر الى
قنا في ابريل سنة ١٩٠٨ ليتخلصوا من نشاطه وكفاءته

ومع ذلك ظل المترجم وزملاؤه (ومنهم علي علوي باشا ومحمد بك فريد ؛ وقد طلب
اليه مجلس الادارة ان يتنحى عن العمل في لجنة الجامعة نظراً لتطرف لونه السياسي فقبل ،
وعبد العزيز جاويش بك وقاسم امين بك وعبد العزيز فهمي باشا) ينادون بانشاء الجامعة
المصرية ويجوبون البلاد ويخطبون في الناس ويجمعون الاموال من نقد وعقار ووقف ؛ وكلل
عملهم في النهاية بالنجاح وان يكن نجاحاً محدوداً ؛ فانشئت الجامعة ولكن الدراسة فيها كانت
مقتصرة على الحقوق والآداب . واختير المترجم بعد ذلك لتعليم الادب العربي وتاريخه ،
فدرسه سنتين مع اشتغاله بالقضاء ؛ ووضع خلال تلك المدة ثلاثة اجزاء من كتاب الادب
العربي ضمنه ابحاثا لم تكن مطروقة من قبل ؛ وسافر بعد ذلك الى مؤتمر المستشرقين في اثينا
وقدم لهم من المباحث ما فاز بتقديرهم واعجابهم

واصدر وهو وكيل بمحكمة طنطا على عجب باشا مدير الغربية اذ ذاك ، حكماً مدنيا
له حيثيات توجب محاكمة المدير جنائيا ، وكان من اثر مثل هذه الاحكام ان بقي في طنطا
بضع سنوات بدون ارتقاء في المنصب او ازدياد في المرتب ؛ وحدث ان احيل الشيخ حمزة
فتح الله المفتش الاول للغة العربية الى المعاش ؛ فاتجهت الانظار الى المترجم وألحت عليه وزارة
المعارف في قبول ذلك المنصب فوافق في النهاية ، على ان صوت الوشاة حال دون ترقيه ، فلم
يزدد مرتبه قرشا واحداً في السنوات الثلاث التي قضاها في المعارف

وكان يوجه اكبر عنايته في تلك المدة الى تنقية اللغة العربية من الالفاظ العامية والدخيلة
ووضع اصطلاحات صحيحة للعلوم التي كانت تدرس باللغة الاجنبية ثم تقرر تدريسها بالعربية؛
وتنقيح مناهج اللغة العربية ؛ ووضع كتب جديدة للمطالعة واخرى في مادة اللغة نفسها، ولكن
ذلك لم يتيسر له كله فقد رأت الوزارة ان الطواف اليومي في المدارس اهم عمل يقوم به المفتشون
وكان في ادوار حياته كلها يميل الى الاندية الادبية ، فقد كان وكيلا لجمعية الاعتدال

التي انشأها اصحاب المقتطف في اول وفودهم على مصر لمحاربة الخمر وحث الناس على الاهتمام بالآداب القومية ؛ وكان لها من الشأن ما لا يدركه القارىء الآن نظراً لضآلة شأن اكثر الجمعيات التي تعمل الآن لتحقيق مثل هذا الغرض. وأسس في قنا نادياً يدعو الى الاخلاق الفاضلة كانت تلقى فيه المحاضرات كل اسبوع ، وكان اكبر العاملين في نادي طنطا وقد القى فيه بضع محاضرات قيمة ، وانشأ في القاهرة نادي دار العلوم للمباحث اللغوية والآداب العربية، وقد سار النادي خطوات واسعة في سبيل اصلاح اللغة ولولا الاشاعات التي دارت (قبيل الحرب) عن سعد زغلول باشا في آخر وزارته واتهام النادي بأنهُ متشيع له لأخرج هذا النادي كتباً جمة وقواميس مستحدثة . وقد كان المترجم من اوائل الذين فكروا في انشاء مجمع لغوي ، وقد تكوَّن هذا المجمع فعلاً وعقد بضع جلسات في دار الكتب المصرية ، ولكن الاحوال حالت دون استمراره ونموّه . وكان المترجم يعنى بتثقيف أولاده وبناته وبوجه خاص كبراهم ملك ، وهي أول سيدة مصرية طالبت برد حقوق المرأة باعتدال . وقد أصبحت بعد زواجها واقامتها بالفيوم توقع قصائدها ومقالاتها في الصحف باسم « باحثة البادية » . ثمَّ ختم اعماله العلمية بذلك العمل الضخم الا وهو تصحيح رسم المصحف العثماني . ولكي يدرك القارىء شيئاً عن قيمة ذلك العمل وما بذل في سبيل اتمامه من الجهد والتضحية أرى ذكر الادوار التي مرَّ عليها :—

كان الخديوي السابق عباس حلمي يلحن في قراءة القرءان . وسأل مرة هل ثمة ما يمنع طبع المصاحف بحسب قواعد الاملاء الحديثة ، فلما آنس بعض كبار علماء الازهر من سموه رغبة في تنفيذ ذلك الرأي ؛ سارعوا إلى تحبيذه والافتاء بجوازه وتفضيله ؛ وانفرد المترجم أول الامر بالمعارضة في ذلك مراعاة لاصول القراءات وخوفاً ان تتعدد المصاحف في شتى البلاد الاسلامية فيجر ذلك إلى تفكيك روابط الالفة التي يوثقها القرءان بين افراد المسلمين على اختلاف شعوبهم ونحلهم . ثم اقتنع بعض الفضلاء بهذا الرأي فناصروه فانتصر

وقد ادى النقاش في درسهم خط المصحف على النمط الذي كتب به اول مرة في عهد الخليفة عثمان بن عفان ؛ الى تبين اخطاء في رسم الحروف وقد اخذت تتكرر وتزداد بتوالي الطبع من ذلك العهد حتى ما بعد الحرب ، فوجب العودة الى الصواب . وقد أسند هذا العمل الى اشد المتحمسين له كما هي العادة . وكان المترجم اذ ذاك مفتشاً اول للغة العربية بوزارة المعارف ؛ فكان يقوم به الى جانب عمله الرسمي ، وكان يعاونه الاستاذان احمد الاسكندري ومصطفى العناني ، وكانوا يقطنون ثلاثتهم حلوان فكانوا يجتمعون بمنزلنا هناك

ثم جاءت الحرب العظمى ١٩١٤ برمتها فعمدت الحكومة المصرية في ذلك الحين الى الاقتصاد المعكوس فتبرعت للجيش الانكليزي بثلاثة ملايين من الجنيهات وتخلت له عن اجر الانتقال في السكك الحديدية وسنت قانوناً تحيل بمقتضاه الى المعاش كل موظف بلغ الستين من عمره ؛ ولم يطبق

هذا القانون على أصفياء الحكومة حينئذ بل طبق على المغضوب عليهم ذوي الشخصيات البارزة الذين لا تلين في الحق قناتهم ولا يطأطئون رؤوسهم للمتظاهرين بالسيادة والسلطان.

وصدر القانون المذكور فأصر عدلي باشا يكن وزير المعارف على تنفيذه فيما يختص بإحالة المترجم إلى المعاش رغم معرفة الوزير ان ذلك التنفيذ يهدد مشروع تصحيح رسم المصحف بالقضاء عليه

وما تحرر المترجم من قيود منصبه حتى تفتحت أمامه سبل الرزق فعرض عليه بعض رؤساء الحكومة ان يعيدوا اصدار جريدة المؤيد ويسندوا اليه رآسة تحريرها بمقابل ألف جنيه يتقدمها سنويًا — وهو مبلغ غير قليل باعتبار قوة الشراء في ذلك العهد — فرفض هذا العرض نفوراً من التورط في مناصرة سياسة الحكومة وما يحف بها، ورغبة في التفرغ لاتمام مشروع المصحف (وقد عرضت رآسة التحرير بعد ذلك على المرحوم محمود بك رشاد فرفضها هو الآخر). وعرض عليه بعض المحامين ان يشترك واياهم في فتح مكتب للمحاماة فرفض وعرض عليه منصب رئيسي في ادارة التعليم بأحدى الجمعيات الخيرية الكبيرة فرفض، وبلغ من اكبابه على تصحيح رسم المصحف ان لم يبق له وقت يجمع فيه اشعاره وازجاله ونثره وأغانيه ورسائله ومقاماته ويرتبها في كتب يشرف على طبعها بنفسه كما يفعل غيره من الادباء والشعراء، وقد كانت كل هذه الاعمال خليقة بأن تدر عليه بعض المال فضلاً عن قيمتها الادبية

وقل دخله بعد احالته على المعاش فنزل مستوى معيشته كثيراً. وكان يعرف انه لن يعيش اكثر من بضع سنوات أخرى فلم يدفعه ذلك الى العمل لكسب بضعة آلاف من الجنيهات يتركها لأسرته الكبيرة، بل زادته هذه المعرفة اكباباً على تصحيح رسم المصحف، وقد نجح في اتمامه وأصلح بنفسه آخر مسودات المطبعة، ثم كأنه شعر ان مهمته قد انتهت فأسلم نفسه للموت بعد أشهر قليلة قضاها في المرض والاحزان

وقد كانت الحكومة سخية . . . في تقدير المكافأة التي صرفتها لورثته على هذا العمل الذي استغرق من وقته ست سنوات (اذ ان العمل فيه بدأ قبل احالته على المعاش!) والذي تخلى في سبيله عن بضعة آلاف من الجنيهات كان يستطيع ان يكسبها من اشتغاله بشيء آخر. أتدري بكم قدرت مجهوده؟ بمائة جنيه أي بمعدل ١٣٠ قرشاً في الشهر. هذا هو الاجر الذي دفعته الحكومة مقابل ذلك العمل الضخم الذي ربح منه مئات الوف من الجنيهات والذي تذيع به دعايتها في طول البلاد الاسلامية وعرضها. هذا ما دفعته الحكومة لمصلح رسم القرآن. وهي التي دفعت بضعة آلاف من الجنيهات لمدرس انجليزي لانه ألف كتاباً صغيراً في الجغرافيا. ولكنك تفتح المصحف فتجد في آخره ان هذا العمل قد تم في عهد الحكومة وعلى نفقة الحكومة وبناء على رغبة الحكومة. صدق من قال. رب ساع لقاعد

عصام الدين حفني ناصف